نهج «إحساس وكيف ومعرفة»

كوكب يونس

اعتدنا في مؤسسة دار الطفل العربي – المثلث الشمالي على تنظيم معارض لرسومات أطفال المؤسسة وأعمالهم الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاثة شهور حتى خمس سنوات. لم يكن الهدف من هذه المعارض إظهار الناتج النهائي ولا التّركيز على العمل المعروض بحد ذاته، إنما قصَدنا أن نعبِّر عن احترامنا لمجهود كلّ طفل، لأنّنا نؤمن أنّ الأهمّ هو المسار الذي يخوضه الطفل وليس النّتيجة.

لكن ما هو المسار الّذي نتّبعه في عملنا مع الأطفال؟

في المرحلة الأولى، يتمّ عرض مادّة خام للأطفال، على أن يتوفّر فيه شرطان:

- عرض بمعيار جمالي عال يتمتّع بمستوى لائقٍ من الذّوق الجمالي.
- عرض محفز، يبرز المادّة.

يتعلق أسلوب العمل مع الأطفال بنوع المادّة وباختيار الأطفال.

يعطى الأطفال إمكانية التعرف على المادة من خلال اللعب أو المحادثة أو كليهما معاً، ويتعلق الأمر بنوع المادة واختيار الأطفال.

بعد عرض المادّة على الأطفال يتمّ بحثها معهم من النّاحية العلميّة. في هذه الأثناء، على المربية التي تلعب هنا دور الوسيط، أن تتنبه لكلِّ ما يعبّر عنه الأطفال؛ سواء أكان ذلك كلامياً أم بلغة الجسد، ليتسنى لها تحديد الموضوع الذي استحوذ على اهتمام الأطفال، ومن ثم التعمق فيه.

من الجدير بالذكر هنا أنَّ عدد اللقاءات لكل مرحلة يحدده الأطفال، والمؤشر لنهاية كلِ مرحله بالنسبة للمربية هو مدى متعة الأطفال. كذلك نجد اختلافاً في عرض الموضوع الواحد بسبب تعدد المربيات واختلافهن، وشخصية المربية المرافقة.

لتوضيح الفكرة، سنقدم هنا نموذجاً على سيرورة مسار العمل مع الأطفال.

المادة المعروضة: الحجارة

بعد القيام بالبحث العلمي أو التّعرُّف على أنواع الحجارة؛ مبنى الحجارة المختلفة، والأوزان، والألوان وغيرها من صفات الأحجار الموجودة بين أيدي الأطفال، اختارت المجموعة المعيّنة من الأطفال بناء بيت قديم.

كان علينا أوّلاً كبالغين في المؤسسة دراسة طريقة البناء، ثم قمنا بعدها مع الأطفال بزيارة بيت قديم. بدأ الأطفال العمل: جمع الحجارة من البيئة القريبة للروضة، تحضير الطين، ثمّ بدأوا البناء. تعامل الأطفال مع تحديات عدة، أهمها تحديد الأطوال المناسبة للبيت: الطول، العرض، والارتفاع، وتحديد موقع كل حجر في المبنى، وكان هذا كافياً حسب رأيي.

بعد حوالي ثلاثة شهور: كان الناتج: بيت قديم- وقد تمَّ عرضه في معرض خاص بأطفال دار الطفل.

نموذج آخر يظهر تحديات الطاقم في العمل مع مادة الخشب

بعد مسار البحث العلمي، اختارت المجموعة بناء شجرة، شرط أن لا تكون من مادة الخشب. اقترح أحد الأطفال استعمال مادة الحديد، لكن طفلة من المجموعة أجابته قائلة: الأشجار فيها حركه والحديد قاس. لذلك، قرر الأطفال استعمال قناني البلاستيك للبناء. قاموا بجمع القناني وتنظيفها، وبدأوا بعملية البناء، لكنهم لم ينجحوا بربط القناني، فقرروا إلصاقها بعضها ببعض بواسطة الدبق، أو ربطها بالخيطان. وكان التحدي هنا أمام الطاقم: لأيّ حدٍّ نستطيع أن نثق بالطفل؟

عملياً، لدينا الإيمان بقدرات الأطفال لكن مع وجود البالغ الموجّه وغير المسيطر، لذلك اقترحت المربية أن يحاول الأطفال ربط القناني بواسطة تسخينها وإلصاقها وهي ساخنة. بدأ الأطفال بالمحاولة، ولكنّ أحد الأطفال خاف أن يقترب من النار فأبعد القنينة، ثمّ خطرت على باله فكرة، فقام بإدخال عصا ليزيد من المسافة بينه وبين النار، وبذلك أوجد حلاً للمشكلة، فقد لاحظ الأطفال أنه عن طريق إدخال العصي في القناني يمكن ربطها بعضها ببعض، وبناء الشكل المطلوب. ومن المهم جداً أن نذكر هنا أنه عند انتهاء الأطفال من بناء الشجرة ودهن القناني، قرّروا أن ما عملوه هو «نسر» وليس «شجرة».

لتلخيص الموضوع، نقول إنّ نهج «إحساس وكيف ومعرفة» يرتكز على ثلاثة مبادئ:

1. احترام كل فرد حسب موقعه، والمقصود بالفرد الطفل أو المربية أو أيَّ شخص آخر، وقد تمثّل ذلك باختلاف البدايات أو العروض للمادة الواحدة، بسبب اختلاف المربيات.
2. إنّ الطفل يتعلم بشكل شمولي، فخلال المسار تتاح فرص رائعة أمام الأطفال للتعبير اللّغوي والتّعامل مع الأعداد، والحساب، وتطوير العضلات الدّقيقة والغليظة، وتطوير التّفكير العلمي، وتذويت القيم الاجتماعية، ويتم ذلك دون توزيع أو تحديد أوقات لكل جانب.
3. الحواس والجسم هي عوامل أساسيه في عملية التعلم.

بالإضافة إلى ذلك، هناك أمر آخر نعتبره شرطاً ضرورياً وهو المتعة، إذ يتعلّم الأطفال من خلال الفرص الممتعة أضعاف ما يتعلّمونه تحت ظروف ضاغطة أو مملّة. هذا النّهج يراعي متعة الأطفال خلال العمل، وعملياً يرتبط الانتقال من مرحله إلى أخرى، أو إنهاء مرحله أو فعالية معينة بمدى متعة الأطفال.

لضمان نجاح العمل وفق هذا النهج، علينا مراعاة ستة مبادئ:

- الاختيار؛ أي احترام اختيارات الأطفال، وتوجيه كل طفل انطلاقاً من اختياراته.
- المسؤولية؛ أي منح الأطفال فرصة تحمل مسؤولية اختياراتهم، وذلك لكي يشعر كل طفل بأنه قادر على القيام بالعمل وتعزيز ثقة الأطفال بأنفسهم.
- السيطرة؛ أن تنقل المربية بعض السيطرة في تسيير الأمور للأطفال أنفسهم، فعلى الرغم من أنّ هناك شكّاً في كيفية سير الأمور، وأنّ

هناك خطورة معينة تصحب هذا الشك لأنه لا سيطرة كاملة للبالغ على طبيعة النشاط، فإنّ الشّكّ جزء ضروري من العملية التربوية.

- الإبداع – حالة حياة: ليس الإبداع مقصوراً على الفنان فحسب، بل هو في حياة كل إنسان على قيد الحياة. يصعب تفسير الدافع الإبداعي، ولكن من السهل إيجاد علاقة بين السلوك الإبداعي وبين الحياة ذاتها. فالإبداع يعطي للحياة نكهة خاصة.
- انتهاز الفرصة المناسبة؛ إنّ الحياة مليئة بلحظات آنية. وعلى الإنسان أن يتحيّن الفرص السانحة لالتقاط المعرفة المتاحة في لحظتها. وبما أنّنا نعيش خيارات بشكل دائم، فانتهاز الفرص في الوقت المناسب يتطلب منا الكثير من الإصغاء والانتباه لفوارق الحياة الدقيقة.
- الواقعية؛ أن تربط المربية الطفل بالواقع، حيث تجد علاقة أو علاقات بين الأفكار الإبداعية الآتية من الخيال وبين الواقع المحيط بالطفل.

كوكب يونس
مؤسسة دار الطفل العربي– المثلث الشمالي